الأنساق الثقافية في روايتي
(خيبة يعقوب) و (نافلة الخراب)
للكاتب والروائي سعدون البيضاني

المدرس الدكتور
منتدى مانع دايخ
وزارة التربية- المديرية العامة لتربية محافظة القادسية

الأنساق الثقافية في روايتي (خيبة يعقوب) و(نافلة الخراب) للكاتب والروائي سعدون البيضاني

Cultural Modes in the Novels (Jacob's Disappointment) and (Nafilat Al-Kharab) by Saadoon Al-Baydhani

المدرس الدكتور
منتدى مانع دايخ
وزارة التربية- المديرية العامة لتربية محافظة القادسية

Dr. Muntada Mana Daikh
Ministry of Education
General Directorate of Education in Al-Qadisiyah
MuntdaMana@gmail.com

الملخص :

تصدر فرضية هذا البحث عن أن المتن الروائي ينتج عدّة خطابات يمكن قراءتها في ضوءِ مناهج نقدية مختلفة، يستطيع النقد الثقافي من خلال إمكانياته أو يستطيع النقد الثقافي الكشف عن الأنساق المضمرة فيه، في عالم تتداخل فيه الثقافات والرؤى ليشكل ثورة على السائد من تلك الثقافات وقلباً للموازين، ليتحول إلى تشكيل فاعل يعبر بصورةٍ أو بأخرى عن ذواتنا وطريقة تفكيرنا، ومن خلال ذلك وظّف هذا البحث تقنيات الأنساق الثقافية وتمثلاتها المحمولة للكشف عن مختلف الأنساق القابعة في تجربة روائية عراقية من خلال روايتين هما (خَيبةُ يعقوب) و (نافلة الخراب) للكاتب والروائي سعدون البيضاني، فهما تمثلان تصوراً للوجود الإنساني والاجتماعي واستحضاراً له، والكشف عن بنياته اللغوية وأنساقه بلغةٍ فنية. ولنتمكن من الإلمام بموضوع البحث بجانبيه النظري والإجرائي رسمنا خطة منهجية اشتملت على ملخص باللغتين العربية والانجليزية، ومقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وثبت بالمصادر والمراجع.

وقد توزّع البحث بالكشف عن اجرائياته وبحسب هياكل المباحث الثلاثة على المحاور الآتية :

المبحث الأول : (النسق الاجتماعي والإنساني).

المبحث الثاني : (النسق السياسي والسلطة والاستبداد).

المبحث الثالث : (النسق التاريخي).

الكلمات المفتاحية : (أنساق ثقافية، خطاب روائي ، المعاصر، تجليات ، سياسة، سلطة ، استبداد ، تاريخي ، اقتصادي).

ABSTRACT

The study hypothesis is based on the fact that fiction yields several discourses in light of critical approaches. Cultural criticism could the reveal the intrinsic harmony in a world in which cultures and visions overlap to revolutionize those cultures and overturn balances. These culturtes will turn into an active formation that expresses one way or other readers' life and how they think. Therefore, the study employs the cultural modes and the cultural representations that unveil the modes an Iraqi novelist experience through two novels: (Jacob's Disappointment) and (Nafilat Al-Kharab). The novels represent a conception of human and social existence, and the structure of his linguistic construction of his artistic language.

To cover the study topic and its theoretical and procedural sides, the researcher has set up a plan, which includes an abstract in Arabic and English, an introduction, three sections, a conclusion, and sources and references.

The study is divided into the following section:

The first section: Social and Human Mode.

The second section: Political mode, Power and despotism.

The third section: Economic Mode.

Keywords: Cultural modes, fictional discourse, and contemporary, manifestations.

المقدمة :

يُعد الإبداع الروائي العراقي ظاهرة لافته للانتباه بوصفهِ عملاً فنّياً راقياً يقدم فكراً واعياً ومرآة تشدنا بطريقةٍ مميزة إليه، ونقلاً دقيقاً لواقع الفرد العراقي المؤلم وما يعانيه من هموم ومشاكل على امتداد الفترات الزمنية الّتي مرّ بها العراق، إذ توجهت إليه أقلام النقاد والقراء لأنه وعاء تصبُّ فيه أفكارهم وأحاسيسهم ووسيلةٌ يلجؤون إليها " لقول أشياء لا يستطيعون قولها في مقولاتهم الاعتيادية"(١)؛ لما فيه من ثراء وتحولات كبيرة لاسيما فيما يخص جوانب الوجود الاجتماعي والسياسي، بل أصبح يشكل مفهوماً ثقافياً ذا معطى أدبي وفكري تحمل في طياته خلفيات تاريخية قادر على فهم الأنساق الثقافية القارة في نصوصه؛ كونه يسعى إلى استثمار وتطويع الخطاب المعرفي ليتحول إلى تشكيلٍ فاعل باعتبارهِ نسقاً يتسلل إلى النص الإبداعي، ومحاولة الكشف عن النص السّردي وإسهاماته في تشكيلِ خطابٍ ثقافي ينطلق من التقاليد الثقافية للمجتمع وحقيقة الصراع الإنساني والخلفيات الفكرية والإيديولوجية، والذي يتوجب الغوص في أعماقهِ من خلالِ تجليات الأنساق الثقافيّة التي تشكل ثورة على السائد وقلباً لموازينه، والكاتب والروائي العراقي سعدون البيضاني من الكُتّاب الذين تضمنت خطاباتهم الروائية أنساقاً مضمرة في دوال على ذاتها الأدبية والابداعيّة في عمليةِ نقدها أدبياً، فقد قامت نصوصه على فهمٍ واضح وجلي لكل تلك المفاهيم التي تُفرض بثقلها على المجتمع.

وقد كان سبب اختيارنا لهذا الموضوع والرواية تحديداً راجعاً إلى عواملَ موضوعية وأخرى ذاتية، بغية استجلاء مختلف الأنساق الثقافية التي تضمنتها الروايتين للبيضاني أنموذجاً حيّاً مميزاً وتشكيلها فناً وفكراً، وعرض القيم والأفكار الثقافية التي تشتمل على رؤى ذات طابع فنّي مميّز، انطلاقاً من واقع ثقافي تكوّن في ذات الكاتب، وإنَّ ما حفّزني وشدّ قواي ودفعني إلى دراسة نصوصه السرديّة وإظهار فعاليّة الأنساق الثقافيّة فيها، والافتقار إلى وجود دراسة تكشف عن الأنساق الثقافيّة في الروايتين ومغيّبة ضمن المشهد الأدبي واستقصائها بما يتناسب وتحليل النص السّردي، واضاءة جانباً مهماً من تجربته الابداعيّة التي سكتت عنها منهجيات أخرى، واتخذت من منهجية النقد الثقافي الذي يحتم علينا الإفادة من مناهج العلوم الإنسانية آلية تحليلية للكشف عن هذه الأنساق لما يتيحه هذا المنهج من إمكانيات قراءة المضمر وما يختبئ من الوجوه الجماليّة للنص الروائي وتعريّة أقنعة الثقافة لتمرير أنساقها في الروايتين موضع الدراسة.

– إضاءة في حياة الكاتب سعدون البيضاني :

هو سعدون جبار البيضاني كاتب وقاص عراقي من مواليد عام ١٩٥٦ في مدينة ميسان – ناحية المجر الكبير، وهو من عائلةٍ فلاحية بسيطة أكمل الدراسة الابتدائية في مدرسة المجر الكبير الابتدائية للبنين، والدراسة المتوسطة في ثانوية المجر الكبير واكمل الدراسة الاعدادية في إعدادية زراعة المجر الكبير، ويرجع الفضل في تنمية ميوله الأدبية والثقافية البيئة التي نشأ فيها إضافة إلى قربه من الأجواء الثقافية والمبدعين أمثال الأستاذ حطاب أدهم الفيصلي ، والقاص سعيد الروضان، والقاص الكبير أحمد خلف وآخرين.

سعدون البيضاني بوصفهِ كاتباً متدفقاً، وبقدراتٍ إبداعيّة عاليّة إذ بدأ النشر في عمر ١٧ سنة في المجلات والصحف العراقية والعربية وأول قصة نشرها هي قصة العدد من صفحتين في مجلة المجالس الكويتية التي كانت ترأس تحريرها هداية سلطان السالم الصباح، في العدد الاول للمجلة لسنة ١٩٧٥، ومن بعدها نشر بالصحف العراقية وانقطع عن النشر طيلة الحرب العراقية الايرانية هروباً من إجبارهِ على الكتابة التعبوية؛ حيث تكشف منجزاته الابداعية عن أه يتمتع بأسلوبٍ فريد مميّز ورصانة الوعي القصصي لديه؛ وكان يسعى إلى كتابة القصة والرواية فقط واهتمامه الاكبر بالقصة القصيرة جدا، فهو صاحب مشروع روائي حافل بالعطاء ولم يكتب في مجالاتٍ أخرى سوى القليل في مجال النقد (حوار أجراه الباحث مع القاص بتاريخ ٢ / ٨/ ٢٠٢٢).

فضلاً عن ذلك كان عضواً في الاتحاد العام للأدباء والكُتاب العرب، حيث صدرت له مجموعات قصصية عدّة أهمها جنون من طراز رفيع/ مجموعة قصصية – وزارة الثقافة والاعلام العراقية / دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٩٩ مخلوقات ومدن / مجموعة قصصية – مكتب المدى – بغداد ٢٠٠١ خيبة يعقوب / رواية – منشورات منتدى عين للثقافة والابداع – طبعة اولى ٢٠٠٦ خيبة يعقوب / طبعة ثانية شؤون الثقافة والاعلام – محافظة ميسان٢٠١١ اسفل الحرب ..اسفل الحياة / مجموعة قصصية ـالاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين في ميسان ٢٠١٠، ورواية نافلة الخراب / دار ميسوبوتاميا . بغداد ٢٠١٦ زفاف على خيول بيض/ مجموعة قصصية ـ مركز النجباء للآداب والفنون ـ بيروت ٢٠١٨/ مدونة الولد العاق / مجموعة قصصية ـ اتحاد الادباء والكتاب في ميسان ٢٠١٠ ؛ مما جعله في إطار يتيح له الفرادة والتميّز في المجال الأدبي والفنّي، حيث نشر العديد من القصص والمقالات النقدية في الصحف والمجلات العراقية والعربية فاز بالجائزة

الاولى بمسابقة دار جان الدولية للنشر بالقصة القصيرة في المانيا لعام ٢٠١٢من بين ٢٦٤ مشارك . فاز بالجائزة الثانية بمسابقة نازك الملائكة للقصة القصيرة جدا التي اقامها الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين لعام ٢٠١٢ من بين ١٤٦ مشارك .فاز بالجائزة الثانية بمسابقة رابطة الادباء العرب للقصة القصيرة من بين اكثر من ٤٠٠ مشارك لعام ٢٠١٣ .

وبعد هذا كان لمشاركات الكاتب في المهرجانات الثقافية والأدبية في داخل العراق وخارجه أكبر الأثر في رسم معالم ثقافته، فقد فاز بجائزة التميّز بمسابقة القصة الومضة العالمية الاولى لعام ٢٠١٤م التي أعلنها الاتحاد العالمي للشعراء والمبدعين العرب من بين ٣٠٠ مشارك عربي، ثم فاز بالجائزة الثالثة من بين ٢٨٤ مشاركاً في مسابقة صلاح هلال على مستوى مصر والدول العربية بالقصة القصيرة لعام ٢٠٢٠/٢٠٢١، وشارك في نشر العديد من القصص والمقالات النقدية والثقافية في الصحف العراقية والعربية والعالمية داخل الوطن العربي وخارجه . عمل محررا في عدد من الصحف والمجلات الادبية والمواقع الالكتروني.

المهد النظري :

فلسفة الأنساق الثقافية :

يُعدُّ مصطلح (الثقافة) من أكثر المصطلحات استعمالاً في حقولٍ معرفيّة كثيرة كالسياسة، والاجتماع، والنقد الأدبي، والتاريخ ، والفنون...لتكشف أن التكوين الدلالي للنص الأدبي ينطلق بداية من التجربة الابداعيّة وتمثلاتها الإيديولوجية والمعرفية من أسلوب، أو لغة ، أو دلالة ، أو بناء، أو تاريخ التي تعكس الأنظمة الثقافيّة والسياقات المختلفة المؤثرة فيها، والذي أسهم بشكلٍ فعّال في بيان أن النقد الثقافي يمثل منهجاً جديداً في مسار النقد الأدبي الحديث، فهو يمارس فعاليّته في بنية النص الروائي ويسعى إلى تحليل النصوص والخطابات في ضوء المعطيات الإنسانية والاجتماعية والسياسيّة حيث يمكن القول بأن " الدراسات الثقافية تنطلق من موقع المعارضة والاختلاف السائد الثقافي... كسرت مركزية النص ... لقد صارت تأخذ النص من حيث ما يتحقق فيه وما ينكشف عنه من أنظمة ثقافية"(٢)، ومن هنا فالعمل الروائي يعدُّ منفذاً يلجُّ من خلاله المبدع في خلقِ آفاقٍ وفضاءات جديدة في المتن السردي ، وتصبح إجراءات النقد الثقافي في تعاملها مع النصوص الأدبية من خلال السياقات السياسية أو الطبقية التي نشأت فيها بتأثير ظروف معينة، لذلك " يصبح النص

علامة ثقافية تحقق دلالتها فقط داخل السياق الثقافي السياسي الذي أنتجها"(٣)، وهذا يعني أن النسق قائم على عناصرَ متكاملة ومتفاعلة تحقق وظيفة معينة في ضوء دراسة الخطابات واكتناه أبعادها ومضمراتها من خلال المرجعيات التاريخية والاجتماعية والأخلاقية، ومن هنا فإن النقد الثقافي يتعامل مع المنجز الجمالي ليس باعتبارهِ نصّاً، بل بمثابة فاعليّة قرائية مهمة للظفر بمكوناته والكشف عن الحاضر والمضمر في النص الإبداعي، وهذا ما أحدث نقلة نوعية في العملية النقدي باعتبارهِ حدثاً جمالياً سعياً إلى قراءةِ نافذة في جغرافيا الفضاء الروائي، ولذلك قدم النقد الثقافي للخطابات الأدبية أهمية وقيمة لما يمثله " بوصفه تركيبة اجتماعية منغرسة في أعماق الخطاب، تعبّر عن الصورة الاجتماعيّة والثقافية لمجتمع ما، يصعب اكتشافها بالقراءة السطحية لأنها تختبئ خلف السطور، والنسق الثقافي هو عنوان المجتمع وهويته"(٤).

المبحث الأول : النسق الاجتماعي والإنساني :

يكشف النسق الاجتماعي والإنساني في الرواية من خلال المظاهر والتوجهات الاجتماعية وكعلامة ثقافية وإنسانية في تشكيل المجتمعات تحت جميع أوجه السلوك الإنساني في الساحة الابداعيّة، والتي تحمل في طيّاتها مجموعة من النظم الاجتماعيّة والانسانيّة ذات قواعد سلوكيّة تحكم النشاط الإنساني وطبيعة الشخصيات، وتصرفاتهم، والعلاقات التي تربط بعضهم البعض لتظهر من خلالها ثقافة المجتمع من حيث العادات والتقاليد وتجسيد الواقع والتعبير عن قضاياه بقالبٍ فنّي جمالي وأسلوب مشوّق ولغة فريدة من خلال قصص انسانيّة واقعية، ومنه يعتبر النص السردي حقلاً خصباً للأنساق المضمرة تحت طيّاته، فكانت الرواية بذلك" عمل أدبي متخيل ، لكنه دال على مدلول معين هو الواقع الاجتماعي، وذلك يعني أن الحكاية القصصية تقدم نصف الحقيقة ، إن لم تقدم الحقيقة كلها"(٥).

إنَّ تأملاً للنسق الاجتماعي والإنساني في نصوص روايتي خيبة يعقوب ونافلة الخراب يجد أنه انبجست منها بشائر الأنساق الاجتماعية والانسانيّة، فتخرج علينا (رواية خيبة يعقوب) بأنموذج متشرّب ينقل من خلالها الكاتب مشاعره تجاه أوجاع ومظلومية أبناء الوطن من خلال شخصيات اختارها من فئات معينة للمجتمع العراقي داخل متنه القصصي مثقلة بالأحزان والألم، حيث تعانق التجربة الانسانيّة بأسلوبٍ سردي عبر مشاهد توثيقية تستدعيها الذاكرة ، فالقيمة الإنسانيّة التي يرمي إليها الكاتب جليّة وهو يدافع عنها بمعناها الروحي والفطري فيقول:

" عند الصباح افترشوا خارطة الحياة وكل وضع بوصلته أمامه، حددوا اتجاهاتهم، حقبة مضت

وأخرى تنتظر، التنبؤ بما تحمله رجماً بالغيب لذا فالمؤامرة عليها ضرب من التحدي، توزعوا على منافذ الحياة التي استقبلتهم على غير ما يبغون، ويتمنون، أججت طفولتهم كبرتهم، أعطتهم دروساً إضافية في وقت مبكر جداً وكابروا حتى تركت صواني الكعك كدمات من اللحم الميت في فروات رؤوسهم، الأزقة ألفت أقدامهم لطول ما تجولوا، أطفال المنطقة يميزون أصواتهم عن بعد فيما لوكان حسن ، كريم، عباس الذي يصيح بأدب ..جرك ..كعك أبو الدهن يموع بالجاي.. آه لو كان جبر جنبني الآن، هل هكذا ؟ وتنظر إليهم واحداً واحداً – لصلبني والله ، لكن ماذا أعمل بكاء مجرد دموع تنزح بصمت ، تتحسس ملوحتها فتمسحها بطرف شالها... دخل أولادها الثلاثة ، أخذت أختهم سُكينة صواني الكعك فارغة والنشوة واضحة عليهم إن باعوا بضاعتهم مبكراً وتقاطر الجميع في جحيمٍ من القُبل والمحبة مع خيطٍ شفيف من الحزن والتذمر وذيولاً من التعب"(٦).

يكشف لنا الراوي من خلال هذا النص ما تحفظه ذاكرته من الأوقات العصيبة عن ظرف زماني ومأساوي مرّ به المجتمع العراقي، وتدهور الوضع الاقتصادي والحروب التي عصفت بأبنائهِ مشحوناً بلحظةٍ مأزومة بأسلوب الأداء الفنّي؛ بعاطفةٍ حزينة تدلُّ على احساسه العميق بحبّه لوطنه وارتباطه المصيري معه ؛ لتعكس حالة التمزّق والألم التي يعيشها المجتمع العراقي آنذاك في نمط عيشهم، فالراوي هنا أبرز النسق الإنساني والاجتماعي بشكلٍ كبير في نصّه، من خلال أسلوب السّرد والوصف الذي يصوّر حالة الجوع والبؤس والشقاء لأطفال فقدوا أباهم في الحرب نتيجة الخدمة العسكرية القاسية التي يحارب فيها العراقيون بكراهيةٍ شديدة، ولكونه المعيل الوحيد لهم ولا يملكون من المال ما يسدُّ به رمقهم، فقد نقل نقلاً أميناً صادقاً انكسارهم وتوجعهم ليترجم بوساطة السردية الثقافية المؤلمة من خلال : (عند الصباح افترشوا خارطة الحياة وكل وضع بوصلته أمامه / توزّعوا على منافذ الحياة التي استقبلتهم على غير ما يبغون ، ويتمنون / أجّجت طفولتهم كبرتهم ...)، حيث يتشكل الانهيار الإنساني لدى الكاتب بوساطة لقطاتٍ سينمائية لتنصهر في قالبٍ تعبيري صارت مرتكزاً حسيّاً مثقلاً بالهموم، ليصوغ بها تأملاته الباطنية التي تمنح النص مأساويته عبر ما تخلفه من آلام بكلِّ أبعادها الإنسانية والاجتماعية والفنيّة، وكأنه يسعى إلى رسم لوحة مشهدية ينزف من خلالها على الورق نتيجة لواقعٍ مأساوي مرتبط بمرحلةٍ قاسيّة تضجُّ أوجاعاً وألماً فُرضت على بلدهِ العراق، فالخطاب القصصي يحمل إشارات ثقافية يضمر من خلالها غضباً وامتعاضاً وحزناً ، وحمل الواقع المؤلم في ضوء ظروفه الاجتماعية والثقافية من

خلال حسّه الشعوري، فجاء صادقاً نابعاً من القلب؛ إذ يعطينا الكاتب مظهراً مأساوياً معيشاً يتميز بعذابات الإنسان العراقي وسلب إرادته وروحه بفعل الأثر السلبي عبر قيم الذل والشر التي تدمر الإنسانيّة (٧).

ومن بين نصوصه القصصية الأخرى عبر رواية (نافلة الخراب) التي تجسّد رؤيته القصصية الانساقية وتسبر في أعماق مخيّلته؛ فيبوح بالانفعالات والاحساسات المؤلمة التي تسيطر عليه لنقد الواقع المؤلم وفق رؤية فلسفية مبنية على تصورات واقعية، حيث نجد النص الآتي يحمل نسقاً ثقافياً ذات بعد إنساني واجتماعي تختبئ خلفه مضمرات أيديولوجية، فيقول:

" الشيخ شعلان أسمر قصير القامة مربوعٍ ، كان قوي البنية مفتول العضلات بشكل لا يصدق، دائماً يفتح أزرار دشداشته كي يبرز صدره الذي صار يختلف لونه عن باقي جسمه لتعرضه للشمس دائماً... خلف ثلاثة أولاد وبنتين، وبعد موته قُتل أحد أولاده في الحرب مع إيران والثاني وجد مقتولاً في ناحية الدبوني على الهوية الطائفية وعثر على جثته في ثلاجة مستشفى الكندي في بغداد والثالث يقال أنه ارتحل إلى كركوك عندما كان صدام يقدم اغراءات ومنحاً مالية ودوراً مقابل تغيير هوية الأحوال المدنية إلى كركوك لتعريب المدينة وجعل غالبيتها عرباً وتركماناً خوفاً من ضمها لإقليم كردستان، ولا تعرف أخباره ، أما بناته فقد تزوجن وانقطعت أخبار العائلة "(٨).

إنّ القاص البيضاني يستمد وجوده القصصي من الاتكاء على الثراء التاريخي والإنساني، ليجسّد لنا حالة من المأساة التي يعيشها أبناء المجتمع العراقي، عبر متواليات سردية اعتمد فيها تقديم الحدث طريقتي السّرد والوصف لتجربة الفقد والشتات بكلِّ ألمه نابعة من منجم الذاكرة ؛ فتتداعى أحاسيس القاص الطافحة في أعماقه بمعيّة الذاكرة لتسهم في تأجيج توتر فنّي عالٍ بفعل سوداوية الواقع وقتامته؛ إذا راح يرسم لألم المجتمع العراقي وواقعه المأساوي على الصعيد الإنساني ممارسات مرعبة فرضت عليه إبان الحروب ابتداءاً في الحرب مع ايران و انتهاءاً بالاحتلال الأمريكي، فالإحباطات بكلِّ أبعادها الإنسانية والفنيّة تضجُّ نسقياً وبوحاً وألماً لأن بلاده في محنٍ عظيمة توالت عليه؛ فتظافرت تراكيب النص القصصي لترجمة الحالة النفسيّة التي تراكمت في أعماق وجدانه الانساني وعليه "يتفاعل في داخل قلقه الذاتي، وقلق مجتمعه وأمته، وقلق إنساني عام"(٩).

لقد اتسع إحساس الكاتب المرهف بالمرارة والتضجّر والألم ومواقفه الرافضة عبر السردية النسقية المضمرة التي تدير انفعالاته في وعي ما يتناسب مع الحدث الكامن، ولما آل إليه وطنه وأهله إلى حالٍ سيئة عبر الحدث القصصي

وتصويره نسقياً ضمن نطاق الصدق الفنّي، واستدعاء أحداث متبلورة في ذاكرة الكاتب تتصف بالظلم والقهر أنطقها بمهارةٍ درامية فائقة، مسلطاً الضوء عليها لكونها تسعى إلى هدم الوجود الإنساني والاجتماعي للوطن عبر المتواليات " وبعد موته قُتل أحد أولاده في الحرب مع إيران / الثاني وجد مقتولاً في ناحية الدبوني على الهوية الطائفية وعثر على جثته في ثلاجة مستشفى الكندي في بغداد / والثالث يقال أنه ارتحل إلى كركوك عندما كان صدام يقدم اغراءات ومنحاً مالية ودوراً مقابل تغيير هوية الأحوال المدنية إلى كركوك لتعريب المدينة وجعل غالبيتها عرباً وتركماناً ..."، فكانت الصيغ السردية الدالة على الماضي هاجساً نابضة بدلالاتٍ وطنية معبرة رمز بها إلى وقوع البلد الذي ينزف حزناً من ويلات الحروب والأزمات التي عصفت به، ولتطغى القضية العراقية بتفاصيلها كُلّها وتحمل في مضمونها إدانة نسقية مضمرة لمن تسبب في هذه المصائب ولوعة العذاب العراقي التي سلبت هوية الانسان العراقي نتيجة الحروب العبثية، وهذا النسق نتلمسه جيلاً بعد جيل كمنحوتٍ بلاغي له آثاراً عميقة في ثقافتنا وأعرافنا الاجتماعية والانسانيّة، وتحول إلى أنساقٍ ثقافية راسخة ومتجذرة تخلق أنماطاً سلوكية وأعرافاً ثقافية (١٠).

ويضاف إلى كُلِّ هذا أن الكاتب يعمد في قصصهِ على توظيف مجموعة من الأفكار التي ترتبط بالنسق الاجتماعي والإنساني، وعرضها بأسلوب الأداء الفنّي في سياقها الإنساقي السردي وصوّر معاناة جبر وأولاده لفقد زوجته (صبرهن) في مرحلةٍ قلقة مرّ بها العراق في أثناء الحرب العراقية – الإيرانية، بعاطفةٍ جيّاشة منبعثة من داخلهِ بعفوية، فبدوا في حزنٍ وأسى يوجع القلب ليكشف عن الدور التي كانت تؤديه شخصية (صبرهن) المشّعة في النص ، فيقول في رواية (خيبة يعقوب) :

" في منتصف السنة الثانية من الحرب التي ازدادت ضراوة وأخذت تلوك الناس بأسنان حادة سقط النذر من صبرهن، أول الأحلام سقط، خيبة أولى ، عاد الأولاد من جبهات القتال .. لم يستقبلهم أباهم عن بعد كما تعودوا، لم يجدوا صبرهن باستقبالهم كالعادة بل وجدوا سكينة مدحورة يلفّها السواد، فقد خرجت صبرهن من الحياة مرغمة.. القصف يتعدانا آلاف الكيلو مترات، يعبر خطوط المواجهة، يسقط قلبك خوفاً من سقوط صاروخ لا تدرين أين وقع ...بعد موت صبرهن التي كانت تملس على جبر وحشة الدار المسكونة، من سيراوغه ويكذب عليه ذلك الكذب الأبيض الجميل.. كل الرجال يخففون وطأة حنان الأمومة على نساءهم عندما يقلقن على أولادهن إلا جبر كانت صبرهن تخفف عليه

لفرط حبها له.. كانت صبرهن منهله العذب ، كانت تكتم حزنها بشكل عجيب، كانت تملك موهبة أسمها الصبر حتى أولادها وجبر نفسه أكثر من مرة يتحاورون هل كان أهلها يعرفون إنها ستكون صابرة وأسموها صبرهن، هذا الكتمان وحمل الهم بالداخل هو الذي أجهز على قلبها وأخرسه للأبد"(١١).

إنّ المتتبع للنص القصصي أعلاه يجد أن الكاتب يستعمل الخطاب السردي بشكلٍ ينبض بالموضوعية، لتهيمن رؤيته على الوقائع الخارجية للنص، وليمنح قصته النمو والتطور؛ حيث عكست مظاهر الحكاية المكتنزة بالقيم الإنسانيّة أجواءً من الألم والأسى والحزن التي تعتصر نفسه المنسحقة نتيجة ما يعتمل في نفسهِ من عواطفَ ومشاعر تجاه الفقد بالوجع القصصي من جهة، وبين الوضع الاجتماعي والإنساني القاسي لصبرهن وعائلتها جرّاء ذلك المناخ النفسي المؤلم من جهةٍ أخرى، فثمّة بداية وعرض ونمو سردها الكاتب سرداً قصصياً درامياً مؤثراً ثم النهاية المؤلمة ذات المنظور السردي لأحداث القصة بقالبٍ لُغوي أنيق؛ فضلاً عن أنّ القصة الإنسانيّة العذبة تأخذ بعضها برقابِ بعض حتى تصل إلى العقد.

فالذات الكاتبة تسعى بهذه المتتاليات السردية إلى البحث عن منفذ لمشاعر الألم والفقد لتبوح بعذاباتها، فيحتشد النص بمجموعة من المفاهيم السردية الأنساقية المجسّدة بالتمزق والنابضة بالألم تجاه وطنه إبان الحرب العراقية – الإيرانية لدى الكاتب منها (في منتصف السنة الثانية من الحرب التي ازدادت ضراوة وأخذت تلوك الناس بأسنان حادة سقط النذر من صبرهن/ عاد الأولاد من جبهات القتال / لم يستقبلهم أباهم عن بعد كما تعودوا / القصف يتعدانا آلاف الكيلو مترات / يعبر خطوط المواجهة/ يسقط قلبك خوفاً من سقوط صاروخ لا تدرين أين وقع..)، إذ تعمق ذكريات شخصيات النص وواقعهم المعيش نسقاً اجتماعيا وانسانيا مضمراً يحمل إشارات ومحمولات حيث الانتماء والهوية للوطن رغم نسقية الموت والدمار والحروب والقهر والظلم التي عاشها أبنائه، فالكاتب في هذا النص يطرح أنساق ثقافية لها حضور في الذاكرة الانسانية، ويعيش حالة الحزن والفقد ويشكو الأسى وسيلاً من الذكرى المؤلمة بسبب الحروب والانتكاسات الوجودية وانعدام الأمن ويجعله جزءاً مهماً في تجسيد خطابه الثقافي عبر صياغة تعبيرية سردية ؛ ولهذا " فإن كلَّ نصٍّ تأويلي، أو كلَّ نصٍّ إبداعي مزيج من تراكمات سابقة بعد أن خضعت للانتقاء ثمّ التأليف"(١٢).

ويقدم الكاتب سعدون البيضاني في روايته (نافلة الخراب)، أنموذجاً من نماذج الحكاية في إطار الذاكرة السردية، إذ يتداخل السّرد القصصي مع النسق الثقافي في استعادة ذكريات

مختبئة لتصوير ما يختلج من شعور بالضياع والغربة وخيبة الأمل داخل الذات، لتؤسس وحداتها السّردية فنّاً وجمالاً، فيقول :

" كانت زهرة الخبازة أم هاشم، تنهض في الصباح الباكر، تلملم حاجياتها وتستمر برحلتها التي تعودتها كل شهرين وتسلك الطريق الترابي الجميل بأشجار الأثل واليوكالبتوس سيراً على الأقدام رغم ما يلومها الناس وأقرباؤها على ذلك ومعها متاعها للفطور والغداء والعشاء... البعض ينظر إليها وعيناها تدمع بغزارة ويقولون قلب أُم فيما يسخر منها آخرون، الطريق موحش والمكان غير آمن خاصة أن المكان قريب جداً من المزارع التي تتواجد فيها حيوانات كاسرة مثل الضباع والخنازير والذئاب ..يذهب أقرباءها لملازمتها بعد أن يئسوا من إقناعها البقاء في البيت لاستقبال ولدها الوحيد هاشم الذي احتضنته طفلاً بعد موت أبيه بداء السلْ طيلة العشرون سنة الماضية وهي ترفض الزواج جملة وتفصيلا، لئلا تفقد ولدها الوحيد التي تنتظر اجازته الدورية بفارغ الصبر منذ سنتين حيث يخدم العسكرية في محافظة السليمانية شمال العراق والحرب مع الاكراد قائمة ..تسأل كل السيارات الوافدة إلى المجر الكبير .. هل صادفتم هاشم؟ تأخر اليوم موعد اجازته. وهي تصرخ وتقول قلبي يوجعني .. غداً يأخذني هاشم إلى الطبيب ، على بعد سبعة كيلو مترات من انطلاقهم باتجاه العمارة توقفوا على حادث سير وجدوا هاشم جثة مقطّعة والدم لا يزال ينزف حاراً متدفقاً وبجواره جثة السائق وشخص آخر يلفظ أنفاسه الأخيرة"(١٣).

السياق الثقافي الذي هيمن على فضاء النص فضاءٌ سردي ، يصوّر معاناة زهرة الخبازة ومحنتها لفراق ولدها هاشم وعرضها بأسلوب فنّي حزين يكشف عن الجو المأساوي بوساطة بنية المكان الذي تفوحُ منه آلام الماضي برواية أحزانها في الراهن الأليم، حيث يعبّر عن الألم والاشتياق متحسّرة يعتصر فؤادها المرير المثقل بالهم والحزن : " البعض ينظر إليها وعيناها تدمع بغزارة ويقولون قلب أُم فيما يسخر منها آخرون، الطريق موحش والمكان غير آمن خاصة أن المكان قريب جداً من المزارع التي تتواجد فيها حيوانات كاسرة مثل الضباع والخنازير والذئاب .."، فتأملاً للدلالة النسقية المستثمرة من قبل الكاتب يجدها تبوح عن مكنونات روحها المتأزمة نابعة من عالمها الباطني، فالسردية تجعل الكاتب يدير انفعالاته بحرقةٍ بالغة في وعي ما يتناسب مع الحدث الكامن، ونلحظ بوضوح أن قلبها معلّقاً بولدها هاشم تغمرها سيلٌ من الذكرى المؤلمة التي تكشف عن عاطفتها ومكنونها العاطفي فالنسيج التركيبي الأنساقي للنص يكشف حجم الوجع الطافح في أعماقها من خلال : "احتضنته طفلاً

بعد موت أبيه بداء السلْ طيلة العشرون سنة الماضية وهي ترفض الزواج جملة وتفصيلا، تسأل كل السيارات الوافدة إلى المجر الكبير .. هل صادفتم هاشم؟ تأخر اليوم موعد اجازته ..."، ويواصل الكاتب موقفه الدرامي فشكلَّ به منعطفاً نفسياً أنساقيا وإنسانياً خلقت لأم هاشم حالة نفسيّة متأزمة وإساس موجّع نتيجة الحدث المطوّق بالمأساة والفقدان عبر النتيجة المتشائمة التي مزّقت وجدانها عبر مشهد حكائي، فانتهت بذروةٍ درامية بعثت في نفسها شعوراً حزينا من خلال "على بعد سبعة كيلو مترات من انطلاقهم باتجاه العمارة توقفوا على حادث سير وجدوا هاشم جثة مقطّعة والدم لا يزال ينزف حاراً متدفقاً وبجواره جثة السائق وشخص آخر يلفظ أنفاسه الأخيرة"، فجاءت لغة النص معبرة عن حالة ذهول انتابتها للحدث الأليم ، وتقديم معلومات إضافية للقارئ تعينه على تتبع الحدث ومجريات الأمور(١٤).

المبحث الثاني : (النسق السياسي والسلطة والاستبداد):

يُسلط هذا المبحث الضوء على النسق الثقافي بوجهته السياسية المظلمة التي تُفرض ، وتظلم ، وتُكبّل، وتُلقي بالفرد العراقي في غياهب الألم والحزن بدعوى تسلط السلطات الحاكمة وشرعيتها على الشعب، فكانت لا تستعمل استعمالاً عشوائياً بلْ جُعِلَ منها مناراً لإضاءة أنساق السلطة السياسية القمعية، التي تقوم أساساً على السيطرة والهيمنة وممارسة العنف والقمع ومصادرة الحريات إن تطلّب ذلك ، فالسلطة تعي " أن المثقف هو الأقدر على التأثير في عقول وأفكار الناس"(١٥)، فالنسق السياسي العراقي على اختلاف توجهاته الإيديولوجية يكشف عن أنساق استبدادية قمعية صنمية توارثتها المجتمعات ، وهذا ما شكل محنة للأدباء والمفكرين والعلماء بشكلٍ كبير ضمن الوسط والمؤسسات الثقافية العربية بغياب الإرادة والرغبة في التعبير.

يرصد الباحث في مبحثهِ هذا من خلال نصوص روايتي (خَيبةُ يعقوب) و (نافلة الخراب) مظاهر الاستبداد السياسي ممثلاً بالنظام الدكتاتوري السابق ، واستقصاء مشاهد مهمة موغلة من الألم والبؤس والوجع من الحياة العراقية آنذاك؛ وذلك من خلال سلسلة الأزمات التي مسّت الذات العراقية نتيجة عوامل الظلم والطغيان وتسلّط القوانين الجائرة والاستغلال في الحياة الاجتماعية الحرّة الكريمة، ومظاهر البؤس والفاقة التي رزح تحتها أغلب فئات المجتمع في ظل الحرب العراقية – الإيرانية وما تلاها من ويلات الحصار الاقتصادي الذي فُرض على العراق، فكان هذا النسق الثقافي مؤشراً مهماً لنزوع القاص العراقي للتعبير عن التحرر من

الأنظمة الرجعية التي تتحكم بمصير الشعوب وثرواتها (١٦).

ومن خلال الإشارات السابقة يستدعي الكاتب حالة من التمزّق التي يعيشها المجتمع العراقي ، لتفصح عمّا حولها من استلابٍ وقهر ولتبني أنساقها الاستبدادية على أسسٍ فكرية وثقافية، فتستحضر ثقافة الحياة المدنية العراقية القاسية بقوانينها الصعبة التي تحاول سحق كرامة الإنسان العراقي الموجهة من سلطات الأنظمة الحاكمة آنذاك ، فيقول في روايته (نافلة الخراب) : " عندما توفيت أمي بجلطة دماغية مبكرة ولم تتعد الخامسة والعشرين من عمرها وكانت قد أرسلت إلى المستشفى صباحا... والغريب أن والدي الذي كان سجيناً في أبو غريب لهروبه من الخدمة العسكرية يقول مأمور السجن عندما وصلته برقية الوفاة بلّغه في اليوم التالي بوفاة أمي عند منتصف الليل وبوقاحة دون مقدمات ومراعاة شعوره، حمدان زوجتك توفيت حسب برقية أرسلها أخوك سلمان، مما سبب له صدمة كبيرة رافقته حتى آخر حياته حيث مات مكتئبا ، فقد كان يترقب موته وينتظره بل يتوسل بنا أن ندعو الله ليقبض روحه، وكان يومياً يردد جملته التي حفظها الجيران لو لم يكن الله قد حرم الانتحار ما بقي على ظهرها من دابة" (١٧).

يرصد الخطاب القصصي رؤية مبنية على تصوراتٍ واقعية ذات بواعث نسقية استبدادية ومعاناة اجتماعية يعيشها الفرد العراقي داخل الوطن ، حيث يحمل النص حمولات ثقافية نتيجة ما حدث للمجتمع العراقي من اضطهادٍ وظلم نتيجة ممارسات الأنظمة الفاسدة والسلطة القمعية آنذاك؛ وصوّر الكاتب من خلال ذلك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية بفرادةٍ أسلوبية تدلُّ على عظم المأساة من الأنظمة الباغية لتصل إلى حد المناجاة من خلال : " فقد كان يترقب موته وينتظره بل يتوسل بنا أن ندعو الله ليقبض روحه .."، حيث نجد نسق الضياع والعذابات النفسيّة التي يعيشها حمدان كأنموذج لما كان يعاني منه الفرد العراقي من الظلم والطغيان للأنظمة الحاكمة " والغريب أن والدي كان سجيناً في أبو غريب لهروبه من الخدمة العسكرية.."، فكأنّ القاص في رصدهِ لهذا الأنموذج الإنساني يُلقي بتبعية ما حدث للمجتمع العراقي من فقدان الحياة الكريمة وعظم المأساة وعدم الشعور بالاستقرار ، فالنسق السياسي هنا جاء خادماً للنسق الثقافي العام لكونه يلعب دوراً أساسياً في رسم صورة مرعبة للتعامل اللاإنساني من قبل النظام القمعي ، حيث تنبئ بكثير من الحزن والألم والإحباط لأنَّ " رغبة الإنسان في الحكي رغبة إنسانيّة تكشف عن رؤيته للأشياء وتحدد علاقته بالعالم، إنها رغبة في التطهير ، والبوح وإعادة صياغة العالم وهو في حالة تجلٍّ"(١٨).

ومن بين نصوصه القصصية الأخرى التي نقلت لنا نقلاً أميناً صادقاً أحاسيسه ومشاعره تجاه مظلومية وأوجاع أبناء بلده، وتجسيد الرؤية الفنية والقصصية عبر مشاهد توثيقية تستدعيها الذّاكرة منها قصة أسر جبر في الشمال بسبب الحرب مع الأكراد، بحيث يستحضر ثقافة الحياة المدنية العراقية القاسية آنذاك بقوانينها المرعبة التي تحاول سحق كرامة الإنسان تحت وطأة الأنظمة المستبدة ، فيقول في روايته (خيبةُ يعقوب) :

" في النهار أول ما يتدفق الشعاع ويبدأ بالتوهّج نستلم معاول ، يوعز لنا مسؤول :اهدموا الجبل، حطموه، نريده أن يكون أرضاً منبسطة وإلا سنجعل من أجسادكم أراضي منبسطة ، عندما تصعد الروح إلى فناء أفق الرب المفتوحة محدثة ثغرة في مكانٍ ما، مما تبقى من جسد يبحث عن مستقر، ندق، نطرق ، يتطاير شرار الحجر من أمكنة تمتد بين العين وبين ما تحت المعول... تتوزع كفوفنا فقاعات تنفجر بين آونةٍ وأخرى فيخرج منها ماء زُلال يشبه عيون الماء ساعات الانفجار، يسيل منها الدمع وهي تنهش ما تبقى من ذبالة جسد لاحول ولا قوة ، هذا منهاجنا اليومي ، نحطم الصخور ، الأشجار ، نحفر أنهراً ثم نردمها، يسمونها الأشغال الشاقة، عندئذ تجتاحنا رغبة البكاء فنتذكر شيئاً من رجولتنا وعزة الدمع ، لكنه يخذلني ، ينزل ملتوياً بين أخاديد وجهي ..قال لي أحد المرافقين لنا والذي يجيد العربية، أبكِ ، سوف ترتاح إذا بكيت ويذكرني متعمداً، أطفالك حتماً يعتقدون أنك ميّت الآن، محتمل أن تكون زوجتك ماتت غماً إذا كانت تحبك وإذا لا أكيد دعتها الحاجة والعوز وتزوجت، أحاول تغير مسار المعول نحو رأسي لكن قوة ما تحول دون ذلك، الآن أطفالك عُراة يتصدق عليهم الجيران لأن الدولة اعتبرتك خائناً بسبب استسلامك لنا"(١٩).

يظهر الوجه السوداوي البشع في النص أعلاه بدلالاتٍ نسقيّة ظالمة مضمرة تختفي خلفها كل الآيديولوجيات السياسية الخلافية بين المركز والاقليم ممثلة في السلطة القمعية في شمال العراق آنذاك، والتي تمارس شتى أنواع الضرب والذُل والإهانة والتسلّط والعنف الجسدي والنفسي للأسرى من الجنود العراقيين في السجون والمعتقلات نتيجة تراكم الصراعات السياسية، فالأكراد أبانوا عن الكثير من التصرفات الوحشية واعتمدت نسقاً سلبياً فاعلاً من خلال (يوعز لنا مسؤول :اهدموا الجبل، حطموه، نريده أن يكون أرضاً منبسطة وإلا سنجعل من أجسادكم أراضي منبسطة..)، فالكاتب عبّر عن وضعية الوطن الذي تفوحُ منه رائحة الموت مملوءاً بمعاناة أبنائه ومن ثمَّ فهو نقدٌ لاذع للانتهاكات الانسانيّة التي تتمثل في ذاكرة الحروب العبثية التي سلبت هوية الفرد العراقي، وفضلاً عن ذلك يُصبح إنساناً ممزقاً من الداخل مضطرب الهويّة في ضوء

ظروفه الثقافية والاجتماعيّة من خلال (أحاول تغير مسار المعول نحو رأسي لكن قوة ما تحول دون ذلك..)؛ ومن ثمَّ فهي تفصح عن واقع مرير مؤلم يصوّر الواقع المأزوم المؤلم الذي يخضع له الفرد العراقي وسحق ارادته بشتّى أنواع التعذيب النفسي والقهر والاستبداد(٢٠).

وتستمر الذات الكاتبة من خلال خطابها القصصي في استدعاءها لرموزٍ ونماذج محكومة تحت وطأة الأنظمة المستبدة، وتقف خلفها مسوّغات السلطة القمعيّة التي تجعل منها محكومة بالثقافة الاتباعيّة الهزيلة، ويصوّر جانب من جوانب الحياة الاجتماعيّة العراقية بفرادةٍ اسلوبية ثقافية تدلُّ على عظم المأساة، فيقول في روايته (نافلة الخراب) : " عندما تمَّ تسفير الإيرانيين ومنهم شيخ رضا قد استبعدوا منها زوجته وحفيده وحالتهم متردية جداً ، فأخذ أصحابُ الخير يجمعون مبلغ من تجار المدينة لشراء بيت الشيخ ليسكن به زوجته وحفيده سراً، وكان التجار يدفعون مبلغ خمسة دنانير ودينارين وأكثرهم عشرة ولما وصل الخبر إلى عاشور لويّم سألهم كم وصل سعر بيت الشيخ؟ قالوا خمسمائة ديناراً فقال لهم تعالوا معي ، منذ عشر سنوات وأنا أجمع وأوفر مبلغ للذهاب إلى الحج وعندي الآن خمسمائة، خذوها واشتروا البيت ونؤجل ذهابي للحج وأعطاهم المبلغ واشتروا البيت من الحكومة..))(٢١).

إنَّ القراءةَ الثقافيّة تكشف عن رؤيةٍ فلسفية يحملها الخطاب القصصي، إذ نجد القاص البيضاني في سياق العرض القصصي يُعلن عن احتجاجه وسخطه لما تعرض له المجتمع العراقي، وتوجّعه وتألمه بشتّى أنواع الخوف والتشريد والعذاب النفسي من خلال الحدث والصورة المرعبة للتعامل اللاانساني من قبل النظام الاستبدادي السابق مع الضحايا وزرع الرعب والألم في نفوسهم مبرزاً لنسقٍ أساسي واضح عبر هيمنة الضمير الغائب من خلال قوله : (عندما تمَّ تسفير الإيرانيين ومنهم شيخ رضا قد استبعدوا منها زوجته وحفيده وحالتهم متردية جداً..)؛ وبالتالي ينجم عن ذلك احساسه الحاد بالمرارةِ والألم فحلَّ الأمل مكان التشاؤم والنظرة السوداوية نتيجة اضطهاد السلطة القمعية والاقصاء والتلاشي وعدم الاستقرار وحرمانهم من بيوتهم وصوّر ذلك بعاطفةٍ جيّاشة منبعثة من داخلهِ بعفويةٍ حزينة توجع القلب؛ فالكاتب هنا وفي ظل النقد الموجّه للنظام الاستبدادي الفاشي آنذاك يستعرض قصة درامية مؤثرة عبر مشاركة وجدانيّة، تنبض بداخلهِ عبر منظور سردي تتناوب فيها الوحدات القصصية لتكون مؤثرة في ذهن القارئ؛ فكان خطابه مفعماً ومسوّغاً للقول إنَّ أحداث الماضي الأليم في ظل الديكتاتوريّة ماثلة في ذهنهِ رسمها في لوحةٍ فنيّةٍ معبّرة في منطقة الذاكرة القصصية بمقوماتها

الفنيّة والجماليّة ، ومن ثمَّ فهي تعبير نفسي عن حالة نفسية يعانيها الكاتب إزاء موقف من مواقفه مع الحياة (٢٢).

وفي موضعٍ آخر يعبّر عن واقع البلاد المأزوم الموصوف بالوجع والضياع، إذ يسرد لنا القاص مأساويته ومواجع التمزّق لديه، ومرد ذلك هو نتيجة الظروف الاستبدادية والسياسية التي أحدثت تحوّلاً سلبياً في صميم الواقع العراقي تحركت من باطن الذات ومحمّلة بالمضمرات التي تتعلق بهذا النسق؛ حيث بثَّ الكاتب أفكاره وفلسفته عبر الأنساق الثقافية من خلال تصوير الحروب وآثارها السلبية على المجتمع العراقي آنذاك، فيقول في روايته (خيبةُ يعقوب): " انتهت الحرب مع ايران وقد نستها الناس رغم ضراوتها أعقبتها حرب الخليج ، مرّت أعوام، ودهور، سنوات مرّة همجية، يستغيث بها البشر فلا يغاث، سنين عجاف، حصار قاسٍ لئيم لطم الأفواه وتعدى على حرمتها وترك الألسن تخرج منها طويلة متدلية لتلحس ماضيها القريب بذائقة عاطلة، الناس نادمة على ما ألقت في براميل القمامة من فتات أيام تبطّرها، كان أولى بهم أن يفكروا بمستقبلهم بعقلانية وأن يستبصروا بجدية ما بيّت لهم في المستقبل من نوايا خبيثة بأن ستهب عليهم أيام عجاف وليكفوا عن رمي ما تبقى من موائدهم، الآن تحلم الأطفال أن تلعب بدمى بلاستيكية غير معادة ، بنات تجاوزن سن المراهقة وخفتت أنوثتهن وانسحقت دون أن يتقدم لهن أحد، فالحصار أكل العافية حتى فاضت البيوت بالعوانس والذكريات والوحشة، كل شيء تبدل، سبحان الله، بقدرة قادر صار شعار الناس لا فائدة من زرع لا يؤكل، البطاقة التموينية تربعت عرش المجد وصارت هوية العائلة وعنوانها، الغش الصناعي انتشر كالسل في أفريقيا منتصف القرن الماضي تشتري علبة حليب تجد في داخلها تراب.. حصار لئيم ، الأطفال تئن، الشيوخ تئن، تمر على مستشفيات تجد أسرّة المرضى تستغيث، في الردهة طفل يموت وفي الردهة الأخرى شاب يموت جرّاء نقص الأدوية، عصابات قذرة وراءها أيدٍ قذرة تسطو على منزل أحد الأرامل وترعب الأيتام كي تسرق قوتهم.."(٢٣).

في إطار هذا الأسلوب القصصي الأنساقي للنصِّ أعلاه، نجد الكاتب كان قاصداً الحديث عنه في الوقت الحاضر في اطارٍ قصصي لتقديم الحدث بطريقتي السّرد والوصف عبر مشاهد توثيقية تستدعيها الذاكرة، ومسوّغاً لإلقاء بتبعية ما حدث للشعب العراقي من ظلم وبؤس وشقاء ورمت به في أتون أزمة اجتماعيّة وانسانيّة نتيجة ممارسات السلطة والأنظمة الدكتاتورية؛ حيث نجد شيوع الجوع والفقر والحرمان نتيجة الحصار الاقتصادي الجائر الذي كان مصدراً لتعاسة المجتمع العراقي

وفقدان الحياة الحرّة الكريمة وقتل الطفولة البريئة بوساطة الإشارة النسقية التي توحي إلى مرارة العزلة التي تعرض لها المجتمع العراقي إبان الحصار الاقتصادي ويعيد انتاجها قصصياً من خلال قوله : " الآن تحلم الأطفال أن تلعب بدمى بلاستيكية غير معادة".

فالسياق القصصي تشكل في الحاضر وتوجه نحو الماضي لأحداث مرحلة مهمة من مراحل تأريخ العراق الحديث في فترة حرب الخليج وما أعقبها من فرض الحصار الاقتصادي الجائر؛ إذ صوّر جوّاً مأساوياً من خلال مشهد ذاكراتي مفجع وحزين، وتسليط ضوءاً ساطعاً على مأساة الأمة العراقية راسماً إياها بدقة بلغةٍ واصفة ناقلة الحدث الأليم بحداثةٍ معاصرة، فأسلوب الخطاب النسقي في سياق العرض الخطابي يصوّر معاناة الكاتب ومشاعره بعاطفةٍ جيّاشة منبعثة من داخله بعفوية ليبدي امتعاضه وتذمره من إفساد جوهر الحياة العراقية ورفاهيته وازدهاره وحوّلت الذات الإنسانية من نعيمٍ إلى بؤس وشقاء نتيجة الحالة المعيشية الصعبة التي مرّ بها البلد من خلال : " مرّت أعوام، ودهور، سنوات مرّة همجية، يستغيث بها البشر فلا يغاث، سنين عجاف، حصار قاسٍ لئيم لطم الأفواه وتعدى على حرمتها وترك الألسن تخرج منها طويلة متدلية لتلحس ماضيها القريب بذائقةٍ عاطلة .. فالحصار أكل العافية حتى فاضت البيوت بالعوانس والذكريات والوحشة، كل شيء تبدل، سبحان الله، بقدرة قادر صار شعار الناس لا فائدة من زرع لا يؤكل، البطاقة التموينية تربعت عرش المجد وصارت هوية العائلة وعنوانها، الغش الصناعي انتشر كالسل في أفريقيا منتصف القرن الماضي تشتري علبة حليب تجد في داخلها تراب .."؛ فقد تشير البنية النسقية الاستبدادية المضمرة إلى خطورة ممارسة أفعال السلطة والرؤى السلبية المتولّدة عنها، فهو يرى معاناة العراقيين جرّاء سياسات البعث الصدامي، وبفعل القوى العدوانية الباطشة الأمريكية ومشروعها الشيطاني التي تلذذت بعذابات الانسان العراقي وسلبت ارادته بسبب فرض الحصار الظالم عليه، الأمر الذي يمنح النص عصريته ويربطه بلحظته التاريخية ، إذ إنَّ وظيفته تكملة الحكاية بإنارة ذهن القارئ أيضاً عن تلك الحكاية الفائتة أو تلك(٢٤).

المبحث الثالث : (النسق التاريخي):

تُعدُّ الظاهرة التاريخية هي إحدى المكونات الأصلية والعميقة في تشكيل المجتمعات وتشكيل أثر الراسب الثقافي – التاريخي فيها، لذلك عُدَّ النسق التاريخي من الأنساق الأساسيّة بوصفهِ نظاماً ثقافياً يؤسس لبوصلة خريطة الثقافات والممارسات الفاعلة فيه؛ فلا يمكن دراسة ثقافة مجتمع ما من دون التعرف على الحبل السّري

التاريخي لذلك المجتمع، لكونهِ حركة فاعلة متجددة في الوعي الانساني فلجوء الراوائي المبدع إلى الموروث التاريخي وتوظيفه في متونهم السرديّة بوصفهِ مرجعية ماثلة في الضمير الجمعي، وموجّهاً نسقياً يستوعب المضمون الذي يتعلق بوقائعهم وتجارِبهم وتوظيفه في التّعبير عن الأفكار والمواقف الخاصّة، فالروايات هي سجل الماضي لأمةٍ معينة على اختلاف الأحداث والاشارات التاريخية في زمن وقوعها فهي إرث يتجدد مستعيناً بذلك بإشارات وأحداث تاريخية لا يمكن التغافل عنها، لاسيّما أن " التاريخ لا يمكن استخدامه إلا بقدر ما يؤثر في شروط الابداع ويلعب دوراً في توجيه وبروز الاتجاهات وتشكل الأنساق"(٢٥).

لقد عمد الكاتب البيضاني في روايتيه (خيبةُ يعقوب) و(نافلة الخراب) إلى الترويج لهذا النسق وتمرير مجموعة من النماذج التي اختارها لترتبط بهذا النسق؛ وعمل على رصدها من الداخل العراقي ليقترن الماضي الأليم لديه بصور حزينة نتيجة الهموم الاجتماعية والفردية في آنٍ واحد، ومن ذلك يقول في رواية (نافلة الخراب) : " انشغلت أنا بالنظر إلى صورةٍ قديمة يعود تاريخها لأكثر من أربعين سنة وجدتها أمامي صدفة، تجمعنا نحن طلاب الصف الرابع الابتدائي، صورتي وأنا أحدق بالفضاء كالأبله ويبدو فيها التصنع والفضول، صورة بالأسود والأبيض وقد اصفَّر لونها بعض الشيء وبالكاد أستطيع أن أشخص البعض لكني أعرف مكانتهم من ظهر قلب.. أحدق بأصدقائي الذين لا زلت أعرفهم أو أتذكرهم، هادي موسى عطية غرق في شط المجر الكبير، زكي داود استشهد في الحرب الإيرانية، كاظم مات في القصف الأمريكي، عدنان دكتوراه في الطب وعضو برلمان، سلمان كاتب معروف أصدر العديد من القصص والروايات ، فالح وكيل وزارة، عباس كاظم مات في حرب الشمال، أربعة استشهدوا في التفجيرات الإرهابية، اثنان قتلا في نزاعٍ عشائري ، ثلاثة سجنوا مؤبد لجرائم مختلفة، وآخرون هاجروا إلى اوربا"(٢٦).

إن طابع النص القصصي أعلاه اعتمد على تسلسل الحدث بحيث ينسجم منطقياً مع ما يتسم به من ثقل الهموم بسبب فراق الأحبة، إذ يتحدث القاص في سياق تجربته الذاتية القاسية إزاء سير الأحداث عمّا يعتمل في نفسه أنساقياً من الوجع والفقد وجسّده لنا فنّه القصصي تاريخيا، فعكست الحكاية مظاهر أحداث ماضية شاخصة ذاكراتياً وعن طريق مماحكة سردية تؤطر النسيج الداخلي للمادة الحكائية بهندسةٍ جماليّة وفنيّة، فحسرة البعد عن الأصحاب تحت ضغط الظروف الإنسانية القاسية؛ والذي شكل الموت فيه نسقاً تاريخيا متوارثاً في ذاكرته من خلال : "

هادي موسى عطية غرق في شط المجر الكبير، زكي داود استشهد في الحرب الإيرانية، كاظم مات في القصف الأمريكي، عدنان دكتوراه في الطب وعضو برلمان، سلمان كاتب معروف أصدر العديد من القصص والروايات ، فالح وكيل وزارة، عباس كاظم مات في حرب الشمال، أربعة استشهدوا في التفجيرات الإرهابية.." ، فالنسق التاريخي المضمر يحاول أن يعلو على نفسية الكاتب ويظهر ذلك في نصّه القصصي عن طريق هذه الصياغات المختبئة داخل الأنساق المعمقة بالذكريات المؤلمة نتيجة يأسه من الوضع المؤلم في بلده، والتي تبعث على القهر وروّجها في نفسه لتمثّل نهجاً موجّهاً أدى إلى إعادة انتاجها قصصيا ونحتها واضمارها في لا وعيه الكتابي، بحيث يوثّق الأحداث بطريقةٍ مميّزة ، فضلاً عن الرواسب التي تتركها انعكاسات الحياة في نفسه (٢٧).

وفي مقطع قصصي آخر يظهر فيه النسق التاريخي وهو يستعيد جوهر اللحظة التاريخية التي تفوح منها تشققات الماضي لتخلق صورة من مأساة الأنا وهي تعيش حالة من الشوق إلى المفتقد، والتي جهد الكاتب مخيّلته في رسم أجواء النص في ضوء النقد الثقافي التي تبهر الآخر بالتأمل والدهشة صوب ما يراه، فيقول في روايته (خيبة يعقوب) : " أتقيأ صبري وجعاً وذكريات، أبصر أشيائي في المرآة أو في برك الماء الآسن أو كل العاكسات أجده امتداداً لظلّي، ظلّي داكناً بعض الشيء، ارتواءات أحلامي شاحبة تعاني ضياع الزمن وبضعة من عمري حتى كأني أرى الموتى يستظلون أكفانهم لشدّة بؤسهم.. بين التاسعة والعاشرة من عمري ، أبي في آخر إجازة له قبّلنا واحداً واحداً وسكب عبوة من المرارة، احتضن الفجر.. غادرنا قبل طلوع الشمس قبل أن تتشبث الشياطين بأذيالهِ بعد صلاة خاشعة ودعاء صافٍ، ذهب ملوّحاً لنا بيد ترتجف كالسعفة قبّلنا عدّة مرات، لم يفعلها من قبل كلّم أمي همساً بنصف لُغة لا أفهمها آنذاك وبعينين مضبّبتين، أتذكر وبكلٍّ وضوح أنه قال لها حال وصولي إلى أربيل سأبعث لكِ رسالة وأضاف اليوم أشعر بألم لا أعرف مكانه بالضبط.. الأيام حبلت صارت أشهر، شهر ، شهران، ثلاثة، أربعة، لا شيء يرد من أربيل ، أمي يومياً تعترض طريق ساعي البريد آملةً أن يترجل ويفتح حقيبته الجلدية الحمراء.. ملّ الإجابة على سؤالها التقليدي.. الأيام أغلبها حماقات يمتطيها الزمن فتنوء بحملها علينا.. كنت في الصف الثالث الابتدائي عندما طرق أخي حسن الذي يكبرني بسنتين باب الصف واستأذن من المعلم وخرجت معه من الصف ببضعة أمتار ، فقال لي : جاءت رسالة من أبي يقول أنه أسير لدى العصاة الأكراد في الشمال.. ساحت دموعي وعدت إلى الصف، سألني

المعلم، ماذا حدث ، ما بك بني؟ أستاذ يقولون أبي أسير، وسقطت دموعه هو الآخر، لم تكن دموع المعلم سهلة حين ذاك أبدأ، عمّت الفوضى ، لغط طفولتي، بكى الطلاب بكاءاً جماعياً طفولياً لا يخلو من عذوبة، فقط لأن صديقهم بكى والمعلم"(٢٨).

يبدو جليّاً أن النسق الأبوي قد تملّك الكاتب وهيمن على أفكارهِ وخبايا ذاته، لتجسّد ألمه ووجعه يختزل فيه معاني دلاليّة أسهمت في توليف الصورة الابداعيّة النابضة بالألم، فتشتغل الصورة الأنساقية هنا على ثيمة الغياب والعيش بواقع الماضي الجميل الأليم التي تغدو هنا بؤرة الحدث القصصي؛ ليتحقق وجودها عبر نسق تأريخي واضح وصريح تشكلت رؤياه في الزمن الحاضر ومن خلالها توجّه نحو الزمن الماضي والحديث عن الصورة الإنسانية المفجّعة، ويتم السّرد بوساطة حركة النسق المضمر بحيث تجعل من القارئ أكثر استعداداً للإمساك بخيوط النص، وفسح المجال أمام النسق المضمر لإثارة فضول القارئ الغاية منها كشف المضمر والمخفي من الذات الكاتبة، لينتهي القاص إلى محطةٍ قارة في نفسهِ تفتش عنها الذّاكرة في مسعى منه لإضفاء البعد الواقعي على الزمان والمكان والحدث المتمثّل بالغياب، حيث استطاع محاكاة صورة في مخيلة وذاكرة عراقي باستحضار اللحظات الجميلة التي قضاها مع والده وبعثت في نفسه شعوراً حزيناً ، لكنه يجد نفسه فجأة بعيداً عنه عبر متواليات سردية لتجرِبة الفقد بسبب وقوعه في الأسر على يد الأكراد العصاة في شمال العراق من خلال : " بين التاسعة والعاشرة من عمري ، أبي في آخر إجازة له قبّلنا واحداً واحداً وسكب عبوة من المرارة، احتضن الفجر.. غادرنا قبل طلوع الشمس قبل أن تتشبث الشياطين بأذيالهِ بعد صلاة خاشعة ودعاء صافٍ، ذهب ملوّحاً لنا بيد ترتجف كالسعفة قبّلنا عدّة مرات..".

فللكاتب قدرة فائقة للتعبير عن أحاسيسه الدّاخلية، وإن الفورة القصصية دفعته إلى البوح وافراغ ما انصهر في بوتقة الداخل، وكأنّه في استحضار روح الوفاء والتذكّر لوالدهِ من شريط الذاكرة بذاكرة الماضي الموجع إزاء تجربة حسيّة حقيقية في ترسيخ الوجود الإنساني ، فقد كانت الدلالة الإيحائية مغروسة في هذا النص تتمثل بالحنين إلى مرابع الطفولة والدفء موسومة بعذابات الانسان العراقي والانهيار الإنساني الذي تعرض له من خلال : " كنت في الصف الثالث الابتدائي عندما طرق أخي حسن الذي يكبرني بسنتين باب الصف واستأذن من المعلم وخرجت معه من الصف ببضعة أمتار ، فقال لي : جاءت رسالة من أبي يقول أنه أسير لدى العصاة الأكراد في الشمال.. ساحت دموعي وعدت إلى الصف، سألني المعلم، ماذا حدث ،

ما بك بني؟ أستاذ يقولون أبي أسير، وسقطت دموعه هو الآخر، لم تكن دموع المعلم سهلة حين ذاك أبدأ، عمّت الفوضى ، لغط طفولتي، بكى الطلاب بكاءاً جماعياً طفولياً لا يخلو من عذوبة، فقط لأن صديقهم بكى والمعلم.."، فهو يمثّل مشهد اعترافي حزين ودراماتيكي بفعل الأثر السلبي تمتزج فيه اللوعة والحنين وتكشف عن الكثير من المضمرات النصيّة التي تركت على روحهِ آثاراً لا يُمحى بريقها، فضلاً عن طريق التوجه إلى منطقة الأسرار التي تمثّل المخبأ الذي يُنتج فيه الكاتب تفصيل الحدث؛ فيعرضها بصدقٍ تام وكثافة فنيّة وحرية كاملة(٢٩).

يتكئ الكاتب على الأحداث التاريخية التي هيمنت على ذاكرتهِ في أكثر من نص، مستحضراً في ذلك فداحة الأخطاء الماضية من مساوئ النظام السياسي السابق ومرارة الواقع والدلالات النسقية التي تظهر هذه المساوئ، كشفتها وترجمتها محطات التوصيف في النص القصصي ، وفي ذلك يقول في رواية (نافلة الخراب): : " عمي حاج هاني كيف أحوالك أتمنى أن تكون في تمام الصحة والعافية، منذ سنين وأنا لم أراك، ففاجأني : والدك توفي سنة ١٩٩١ بالسرطان أليس كذلك؟ صحيح من قال لك ذلك؟ .. كنت أتنزه على مشارف القبر ومرت علي الجنازة . في الحقيقة كان المفروض أن يموت في حرب إيران لكنه مات بعد غزو الكويت.. ماكو فرق كلها حروب .. سألني بسخرية : جليل هم ودوك جيش شعبي للكويت؟ طبعاً . أكيد نهبت اللي الله قاسمه؟ بس قليل. عفية كانت الكويت الدرس الأول للنهب والسلب، والله والعراقيين ما قصروا ، لكن لعلمك كان هناك درس سبق أحداث الكويت لنسميه درساً تمهيدياً هو الفرهود عند تهجير اليهود سنة ١٩٤٨ حيث نهبوا دورهم وممتلكاتهم، وعند حدوث ردة تشرين سنة ١٩٦٣ عند سقوط الحرس القومي تم تحطيم الأطواق والتماثيل والبنايات التي كانت مقرات للحرس القومي ونُهبت ممتلكاتها لكنها قليلة، الكويت تختلف صار النهب احترافي وامتلأت البيوت من عفش وأثاث وسيارات الكويتيين حتى ملابسهم التاريخية، لكنها احترقت وحرقت أصحابها وبعضهم أصيبوا بأمراض خطيرة..))(٣٠).

في هذا النص القصصي تظهر لنا كثير من الدلالات النسقية المضمرة التي تحيل إلى الحروب والصراعات، حيث لجأ الكاتب إلى استعمال أسلوب التهكم والردع ضد الغزو الصدامي للكويت الذي دمّر هذا البلد وحطّمه والممارسات اللاإنسانية التي عامل فيها النظام المجتمع الكويتي باسم تحريرهم من النظام الكويتي والعبث بممتلكاتهم وسلبها ونهبها، وفق الدفقات القصصية المرجوة لتشكيل النص بلغةٍ

واصفة ناقلة المشهد المرعب بحداثةٍ معاصرة حيث تتصاعد الدراما من خلال : " سألني بسخرية : جليل هم ودوك جيش شعبي للكويت؟ طبعاً . أكيد نهبت اللي الله قاسمه؟ بس قليل. عفية كانت الكويت الدرس الأول للنهب والسلب، والله والعراقيين ما قصروا .."، فكأن القاص ينبثق من خلال الإشارة النسقية إلى اليأس والخلجات النفسية المؤلمة التي تهيمن على المنجز القصصي لشدّة الظروف التي مرّ بها بلده، وفضلاً عن ذلك نجد أن الخطاب النسقي يشير إلى أن الذات وهي الحاملة لهموم شعبها تبدي امتعاضها وتذمرها لما قام به النظام السابق بقلب الموازين وإفساد الجوهر عبر فعالياتهم المرعبة في احتلال الكويت وتشريد أهله ، بوصفها فعاليّة لها تأثير في الممارسة الثقافية والاجتماعية ضمن دائرة الشر والابعاد بفعل القوة الباطشة والعدوانية التي تحب التخريب والوحشية ليحقق لمحات نفسية وجمالية في بناء المشهد القصصي.

ومما تقدم نلحظ أن الكاتب يجترح لها دلالات ومعاني تتسع للقول السردي من خلال : " الكويت تختلف صار النهب احترافي وامتلأت البيوت من عفش وأثاث وسيارات الكويتيين حتى ملابسهم التاريخية، لكنها احترقت وحرقت أصحابها وبعضهم أصيبوا بأمراض خطيرة.."، فيعطينا الكاتب من خلال التشكيل المشهدي الانساقي مظهراً مأساوياً معيشاً اصطلى الشعب العراقي بنارها، فالكاتب يهجو بطريقةٍ مباشرة المتسببين بهذه المأساة نتيجة السياسات الخاطئة للنظام السابق حيث يتلذذ بالعدوان على الشعوب الأخرى واضطهادها في حقبةٍ حافلة بالأحداث والاضطرابات الكبرى في تاريخ العراق، وبالتالي استطاع الكاتب أن " يتفاعل في داخل قلقه الذاتي، وقلق مجتمعه وأمته، وقلقٌ انساني عام"(٣١).

لقد حرص الكاتب سعدون البيضاني من خلال روايته (خيبةُ يعقوب) من خلال نافذة النسق التاريخي أن يطلَّ على الماضي وعوالمه وذكرياته المؤلمة من خلال الايحاءات والمضمرات التي تكثف المعنى، حيث تتنامى البنية النصيّة اعتماداً على تأجيج المعاناة التي تجسّد مسيرة صراع مر معمق بالجراح تحترق عبرها مشاعره التي فجرتها المرارة ، فيقول :" حين بدأت الحرب مع ايران زُجَّ فيها أولادها الثلاث، وهي لا تفقه شيئاً عن الحرب لكنها تتذكر ماضيها القريب بحزن وخوف كبيرين، كان لأسر زوجها جبر دوي كبير عندها.. يا ترى ماذا تعني الحرب الآن ، المذياع يبث أناشيد / مارشات/ لاحت رؤوس الحراب / احنه مشينه للحرب، مفردات غير متداولة دخلت البيوت، قصف جوي، مدفعي، سمتيات، دوشكه، بي كي سي، أسير مفقود، هذه مسميات

لم تكن متداولة أو معروفة قبل الحرب، إلا أن أعقد وأخطر هذه المسميات الذي يثير الرعب، هجوم شهيد، عندما تدخل المدينة جنازة جندي ميت في المعركة عندئذ الأطفال تركض، الشيوخ تركض، الأمهات يركضن، لا شيء يحافظ على سكونه أو توازنه.. كيف تحمل صبرهن هذا العبء الثقيل بعد ما زجت أولادها الثلاث بالمعركة الذين هم نتاج عمر تحطم على صخرة حياتها، لذا ما تبادر إلى ذهنها – نذر لوجه الله ، ألبس أحمر، أخضر، أزرق، أصفر، وأرقص في الشارع إذا نجوا من الموت، وتؤكد على نذرها.. في منتصف السنة الثانية من الحرب التي ازدادت ضراوة وأخذت تلوك الناس بأسنان حادة سقط النذر من صبرهن ، أول الأحلام سقط ، خيبة أولى، عاد الأولاد من جبهات القتال بسلام، منذ فترة لم تصدف إجازتهم سويّة بيد أنهم وجدوا أباهم منكفئاً على وجهه يذكرّهم بهيئة أمهم لزمن مضى عندما تفرح بمجيء أحدهم وتبكي قلقة على آخر، لم يستقبلهم أباهم عن بعد كما تعودوا، لم يجدوا صبرهن باستقبالهم كالعادة بل وجدوا سكينة مدحورة يلفها السواد، فقد خرجت صبرهن من الحياة مرغمة، أين نذرك ثوبك الأحمر والاخضر والاصفر، تصرين على ايفاء النذر وتريدين تذكيرك بين فترة وأخرى، من سيطبخ عشاء العباس، هكذا تلتهمين الحياة وتغصين بها أم إن الحياة التهمتك ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، القصف يتعدانا آلاف الكيلومترات، يعبر خطوط المواجهة، ما سقط صاروخهم إلا على السوق الذين تتبضعين منه استعداداً لاستقبالنا لأول إجازة من نوعها نتصادف سوية، يسكت قلبك خوفاً من صاروخ لا تدرين أين وقع.."(٣٢).

لقد أسس هذا النص للنسق التاريخي في تشكيله القصصي لأن الذات الكاتبة تفتح أفاق الزمن الماضي من منجم الذاكرة وإظهار رؤيته في الحاضر، لتظهر الصورة المرعبة للحرب العراقية الإيرانية التي لا تبتعد كثيراً عن أوجاع الكاتب التي كانت جزءاً من سوسيولوجيا الذاكرة وتحولاتها الممتدة في ذاكرته ذات الواقع المؤلم وهو ما اهتم به كثيراً في مدونته القصصية، ثم يلي ذلك في الحضور الزماني المرسوم هنا بمديات محددة (في منتصف السنة الثانية من الحرب التي ازدادت ضراوة وأخذت تلوك الناس..)، فهو يبحث في دهاليز أفكاره فيسطرها سرداً ليعبر من خلالها عمّا يختلج بين جوانحه من صراع نفسي وتأزمه وقلقه من خلال : " هذه مسميات لم تكن متداولة أو معروفة قبل الحرب، إلا أن أعقد وأخطر هذه المسميات الذي يثير الرعب، هجوم شهيد، عندما تدخل المدينة جنازة جندي ميت في المعركة عندئذ الأطفال تركض.."، فأعطى انطباعا نسقياً مضمراً أن الكاتب يعاني ألماً وجرحاً كبيرين فاستوعبت

لوحة الوصف ألم الفراق والرحيل وتاريخ تلك الحادثة الفجائعية : " حين بدأت الحرب مع ايران زُجَّ فيها أولادها الثلاث، وهي لا تفقه شيئاً عن الحرب لكنها تتذكر ماضيها القريب بحزن وخوف كبيرين، كان لأسر زوجها جبر دوي كبير عندها ..، كيف تحمل صبرهن هذا العبء الثقيل بعد ما زجت أولادها الثلاث بالمعركة الذين هم نتاج عمر تحطم على صخرة حياتها، لذا ما تبادر إلى ذهنها – نذر لوجه الله ، ألبس أحمر، أخضر، أزرق، أصفر، وأرقص في الشارع إذا نجوا من الموت.."؛ فالكاتب البيضاني يحمل هموم دهره المقمّط بحداد الجنائز وبأدواته المعرفية التي تناغم روحه المفجوعة، وفي شعريته نسق خاص مضمر وتحرشات فكرية ومناوشات قصصية تتصادم فيها المواقف جرّاء اللوعة والعذاب العراقي الممثلة برائحة الدم وطعم الموت من خلال : " فقد خرجت صبرهن من الحياة مرغمة، أين نذرك ثوبك الأحمر والاخضر والاصفر، تصرين على ايفاء النذر وتريدين تذكيرك بين فترة وأخرى، من سيطبخ عشاء العباس، هكذا تلتهمين الحياة وتغصين بها أم إن الحياة التهمتك ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، القصف يتعدانا آلاف الكيلومترات، يعبر خطوط المواجهة، ما سقط صاروخهم إلا على السوق الذين تتبضعين منه استعداداً لاستقبالنا لأول إجازة من نوعها نتصادف سوية، يسكت قلبك خوفاً من صاروخ لا تدرين أين وقع"، وبهذه الوسيلة يستطيع أن ينقل إلى القارئ ميوله وعواطفه في أسلوبٍ فنّي عالٍ (٣٣) ، فمال الكاتب إلى التصوير الحسّي المعتمد على سرد الأحداث درامياً مؤثراً شائقاً عبر مشاركة وجدانية، فأعطى إنطباعاً أنَّ الكاتب يعاني ألماً وحزناً كبيرين ومواقف وهواجس في قمة مواصفاته القلبية والانفعاليّة وانفجار اللغة نتيجة آلام الذكرى وفجائع الحرب والفقد ليكون شاهد عصر ينقل الأحداث بموضوعية.

الخاتمة :

بعد الجولة التي قضيتها في رحاب النقد الثقافي وأنساقه ، وبعد استكناه عوالم روايتي (خيبة يعقوب) و (نافلة الخراب) اللتين تعدان عملاً مميزاً مفعماً بالدلالات العميقة التي لا تظهرها القراءة العابرة، حيث توصلت إلى النتائج الآتية:

- النسق الثقافي في الرواية من أهم المفاهيم النقدية الحديثة له أهمية وقيمته على الساحة الأدبية والنقدية، إذ يهدف إلى مقاربة النصوص مقاربة ثقافية واستنطاقها واستظهار مكوناتها وتحديد مقاصدها من خلال سياقاتها (الاجتماعية والسياسية والإنسانية والتاريخية) التي تتضافر بدورها مكوّنة خارطة النص القصصي المعاصر التي تدور حوله الأحداث الروائية ، ولكونه يبقي كلَّ نسق على توازنهِ من

خلال عملية التبادل، حيث يحتفظ كل نسق بهويته الخاصة.

- استعان الكاتب البيضاني بالأنساق المختبئة في روايتيه بوصفهما نصّاً أدبياً وخطاباً فكرياً وحقلاً قابلاً لإقامة التجارب عليها، وجعل الأنساق متداخلة فيما بينها لجدارتها وقدرتها على تحليل الخطاب، وتعريتها أمام المتلقي في إظهار الأنساق المسكوت عنها في قالبٍ جديد في مزيج من الواقع والخيال، وتشكل مصدراً قوياً لكتابته الابداعيّة على اعتبار أن النص الروائي شكل ثقافي مستتر تحت عباءة نصوص حافلة بمخزوناته الثقافية والأدبية.
- كان للنسق السياسي والسلطة والاستبداد في روايتي (خيبة يعقوب) و(نافلة الخراب) الأثر البارز والبنية التحتية ضمن المنظومة المجتمعية العراقية المحمّلة بالمضمرات، والأكثر حضوراً في كل الخطابات والأجناس الأدبية لاسيما في مجال الفن الأدبي خاصة في مضمار القصة أو الرواية.
- تمكن الكاتب من خلال الوجع الذاكراتي من تفجير اندفاعات موقفية تمتاز بنسيج قصصي ذات حمولة فكرية ضخمة ثقافية ، واجتماعية ، وسياسية، وتاريخية مشحونة بالأحاسيس والانفعالات والعواطف غلّفتها لنا الروايتين بجمالية لغوية.
- توصل الباحث في دراسته إلى أن الكاتب والقاص البيضاني عبّر عن خذلان السلطة السياسية آنذاك للشعب العراقي وحجم المعاناة التي يعيشها الفرد العراقي خلال الحرب العراقية – الإيرانية وما بعدها، والسياسة العراقية المتأزمة جرّاء ممارسات الهيمنة والاستبداد والتصرفات الغير مدروسة والمتشنجة للسلطة عبر لُغة مرموزة ايحائية صعبة غاية في الفرادة والتميّز ضمن إطار التشكيل اللغوي فتُحسب له.
- توصل البحث في دراسته إلى أن نصوص الكاتب سعدون البيضاني قد تميّزت بثرائها الاجتماعي والإنساني في تكوين هوية الأمم والشعوب ، وتصرفاتهم، وهمومهم والعلاقات التي تربطهم، والتي تحمل في طياتها العديد من الممارسات الاجتماعية والانسانية والتي تضمر أنساقاً ثقافية تنبئ عن كثير من الحزن والألم وأزمات إنسانية واجتماعية مرعبة ، وارتباطه الوثيق بقضايا المجتمع العراقي وانتصاره لها من خلال تصوير المجتمع العراقي وعرض أفكاره عبر ما رسمه لنا من صور عالم قد لا نكون رأيناه ، بل هو من أرانا إياه.
- شكل النسق التاريخي في عالم الكاتب البيضاني ظاهرة ثقافية بارزة من خلال سماته الثقافية المختلفة فضلاً عن الأنساق السابقة، إذ استحضر الكاتب من خلالها أثر الراسب الثقافي في بلورة مضمون القصدية النصيّة، مع كشف

جوانب كثيرة من المسكوت عنه، عبرت عن واقع مأساوي من تاريخ العراق الحديث.

- وتبعاً لذلك نلحظ أن للتراثِ حضوراً حيّاً ودائماً في وجدان الأمة لأنَّ روح الماضي يستحضرها الكاتب ويوظفها في الرواية لخدمة وايصال الفكرة بطريقةٍ أبلغ ، فضلاً عن أنّه حركة فاعلة متجددة في الوعي الانساني ورصدٌ أمين للمشهد الثقافي، بحيث نجد أنّه مخزوناً ثقافياً ومتوارثاً من العناصر المضمرة فيه.

الهوامش :

١- خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، رزان محمد إبراهيم:٢٥.

٢- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، د. حفناوي بعلي : ٢١.

٣- م . ن : ٤٧.

٤- ثقافة النص، قراءة في السرد اليمني المعاصر، سماح عبد الفران:١٧.

٥- الرواية السياسية ، طه وادي ، الشركة المصرية العالمية لونجمان- القاهرة، ط٢٠٠٣ : ١٦.

٦- خيبةُ يعقوب : ٣٠-٣١.

٧- ينظر : جبرا إبراهيم جبرا ، دراسة في فنّه القصصي ، علي الفزاع : ١٥١.

٨- نافلة الخراب : ٣٩-٤٠.

٩- الابداع في الفن ، قاسم حسين صالح : ٦١.

١٠-ينظر : النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية ، عبد الله الغذامي : ١١٤.

١١-خيبةُ يعقوب : ٥٢-٥٣-٥٤.

١٢-المفاهيم معالم ، نحو تأويل واقعي ، د. محمد مفتاح : ٤٠.

١٣-نافلة الخراب : ٨٧-٨٨- ٨٩.

١٤-ينظر : النقد التطبيقي التحليلي ، د. عدنان خالد عبد الله : ٨٠.

١٥-دور المثقف في ثورات الربيع العربي وعلاقته بالسلطة السياسية، فادي علان علي جمعة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠١٥: ٢٩.

١٦-ينظر: القاص والواقع ، ياسين النصير ، منشورات وزارة الثقافة ، سلسلة الكتب الحديثة، دار الساعة، ط٨، ١٩٧٥: ٦٩.

١٧- نافلة الخراب : ٦٤- ٦٥.

١٨-تداخل الأنواع الأدبية ، وشعرية الهجين ، جدل الشّعري والسّردي، د. عبد الناصر هلال ، النادي الثقافي الأدبي ، بجدّة، ٢٠١٢ : ٥٤.

١٩-خيبةُ يعقوب :٤٣ - ٤٤.

٢٠-ينظر : بنية الرؤيا ووظيفتها في القصة العراقية القصيرة ، د. صالح هويدي : ٢٦-٢٧.

٢١-نافلة الخراب : ٩٣.

٢٢-ينظر : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي : ١٠٨.

٢٣- خيبةُ يعقوب : ٩٦-٩٧.

٢٤-ينظر : البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، د. أحمد مرشد : ١٠٩.

٢٥-الشعرية العربية ، جمال الدين بن الشيخ ، تر : مبارك حنون ومحمد الولي ومحمد أوراغ، دار توبقال ، ١٩٩٦، ٥١.

٢٦- نافلة الخراب: ٢٠-٢١.

٢٧-ينظر : محاضرات عن فن المقالة الأدبية ، محمد عوض : ٦٦.

٢٨-رواية خيبة يعقوب : ٢٣- ٢٤-٢٥.

٢٩-ينظر : الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا ، د. إبراهيم جنداري : ٢٦.

٣٠-رواية نافلة الخراب : ٢٦-٢٧.

٣١-الابداع في الفن، قاسم حسين مصلح : ٦٤-٦٥.

٣٢-خيبة يعقوب : ٥٠-٥١-٥٢-٥٣.

٣٣-ينظر : الفن القصصي في الأدب العراقي الحديث، د. عمر الطالب : ١/ ٢٠٤.

المصادر والمراجع :

أولا : الكتب المطبوعة:

- الابداع في الفن ، قاسم حسين صالح ، دار الشؤون الثقافية بغداد ، ط٢، ١٩٨٦م.
- بنية الرؤيا ووظيفتها في القصة العراقية القصيرة ، د. صالح هويدي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، سلسلة الموسوعة الصغيرة (٣٨٦) ، ١٩٩٣.
- البنية والدلالة، في روايات نصر الله، د. أحمد مرشد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥.
- تداخل الأنواع الأدبية ، وشعرية الهجين ، جدل الشعري والسردي ، د. عبد الناصر هلال، النادي الثقافي الأدبي ، بجدة ، ٢٠١٢ : ٥٤.
- ثقافة النص، قراءة في السّرد اليمني المعاصر، سماح عبد الفران، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠١٦.
- جبرا إبراهيم جبرا ، دراسة في فنه القصصي، علي الفزاع، دار المهد، عمان ، ١٩٨٥.
- خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، رزان محمد إبراهيم، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣.
- خيبةُ يعقوبْ ، سعدون جبار البيضاني، منتدى عين للثقافة والإبداع ، ط١ ،٢٠٠٦.
- الرواية السياسية ، طه وادي ، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان ط ٢٠٠٣.
- الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، تر : مبارك حنون ومحمد الولي ومحمد أوراغ، دار توبقال ، المغرب، ط١ ، ١٩٩٦.
- الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا ، د. إبراهيم جنداري، دار تموز ، دمشق، ط١، ٢٠١٣.
- الفن القصصي في الادب العراقي الحديث ، د. عمر الطالب، ج١ ، مكتبة الأندلس، بغداد، ط١، ١٩٧١.
- : القاص والواقع ، ياسين النصير ، منشورات وزارة الثقافة ، سلسلة الكتب الحديثة، دار الساعة، ط٨، ١٩٧٥.
- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٧٩.
- محاضرات عن فن المقالة الأدبية، محمد عوض، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في معهد الدراسات العربية العالية، ط١، ١٩٥٩.
- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، د. حفناوي بعلي ، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط١ ، ٢٠٠٧.
- المفاهيم معالم ، نحو تأويل واقعي، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩.
- نافلة الخراب ، سعدون جبار البيضاني، دار ميسوبوتاميا ، ٢٠١٦.
- النقد التطبيقي التحليلي ، د. عدنان خالد عبد الله ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ط١، ١٩٨٦.

ثانيا : الرسائل والأطاريح الجامعية :

- دور المثقف في ثورات الربيع العربي وعلاقته بالسلطة السياسية، فادي علان علي جمعة. رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين ، ٢٠١٥.

Members of the editorial board

Prof. Dr. Ashraf Muhammad Abdul Rahman ..... Editor

Prof. Dr. Sabah Abbas Anouz ..... Editor

Prof. Dr. Abdul Hussan Jalil Al-Ghalibi ..... Editor

Prof. Dr. Mahmmoud Ali Al-Rousan ..... Editor

Prof. Dr. Nuzhat Ibrahim Al-Sabri ..... Editor

Prof. Dr. Tahir Youssef Alwaeli ..... Editor

Prof. Dr. Mushtaq Bashir Al- Ghazali. ..... Editor

Prof. Dr. Amira Jabir Hashem ..... Editor

Prof. Dr. Mustafa Tho Al-Faqar Talab ..... Editor

English language correction	Arabic language correction
Prof. Dr. Abbas Hassan Jasim	Prof. Dr. Ali Abbas Al-Aaraji

Electronic Upload

Prof. Dr. Hyder Naji Habash

Mr. Ahmad Ali

Secretary Editor

Dr. Esraa Kareem Muhammad

Ministry of High Education and
Scientific Research
Al-Kufa Univercity
Education College for Girls

ISSN 1993 – 5242

Journal of the College of Education for Girls for Humanities

Scientific Journal Issued by

College of Education for Girls University of Kufa

Editor

Prof. Dr.

Elham Mahmoud Kazem

Editorial Director

Professor Dr.

Mohammad Jawad Noureddine

Address: Rebuplic of Iraq –Najaf –P.O 199

No:33 – 17Th Year :2023

(Editor) Mobile :07804729005
(Editorial Director) Mobile :07801273466
E-mail: Muhammad-Gawad@ yahoo.com

Technical Designing by
Muhammad Al- Khazraji Bureau
07800180450 - 07740175196
Iraq - Najaf

Journal of the College of Education

for Girls for Humanities

No. 33 – 17th year: 2023

First Volume